لِسَانًا عَرَبِيًّا

شرح مرثية أبي ذؤيب

لِسَانًا عَرَبِيًّا

مرثية أبي ذؤيب الهذليّ

قيلت هذه القصيدة في عصر صدر الإسلام وتحديدًا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ما بين عام ١٧هـ أو ١٨ هـ (الموافق ٦٣٩ م).

المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة:

نُظمت القصيدة مباشرة بعد طاعون عمواس الشهير الذي اجتاح بلاد الشام ومصر؛ حيث كان أبناء أبي ذؤيب الخمسة يشاركون في حركة الفتوحات الإسلامية، فأصابهم الوباء وماتوا جميعًا في عام واحد بمصر بعدما هاجروا إليها على غير رغبة من أبيهم، وهذه القصيدة تجمع بين الندب والعزاء، وهي في مجموعها تعبيرٌ صادق وعميق عن لوعة أبٍ فجع بفقد أبنائه.

أبيات القصيدة زاخرة بالشعر القويّ الفيّاض، والعاطفة فيها تصل قلب السامع بلا وساطة.

تجمع الأبيات بين طرفي الغناء والعنف في الإفصاح بما يختلج في الصدور من لذع الألم وحرقة الحزن.

تندرج القصيدة تحت فن الرثاء، وهو من أصدق الشعر عاطفةً، وأكثره تأثيرًا في النفوس، وهو الفن الذي اشتهر به أبو ذؤيب الهذليّ.

لِسانًا عَرَبِيًّا

شرح النص:

١- أَمِنَ المَنونِ وَريبِها تَتَوَجَّعُ؟ ... وَالدَهرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

يبدأ الشاعر بلوم نفسه أو لوم كل من يفجع بالموت؛ لأن الموت وريبَ الدهر (حوادثه وتقلباته) أمر حتمي، والجزع والبكاء لا يغيران من القدر ولا يرضيان عنك الدهر.

٢ - قَالَتْ أُمَيْمَةَ: مَا لِجِسْمِكَ شَاحِباً ... مُنْذُ ابْتَذَلْتَ، وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ؟

تتعجب "أميمة" من حال زوجها وتوجه إليه سؤالاً يملأه العتاب والشفقة، فتقول له: ما الذي حلّ بجسدك حتى صار نحيلاً ذابلاً ومتغير اللون؟ ولماذا أهملتَ نفسك وابتذلتَ هيئتك بهذا الشكل، في حين أنك رجل ميسور الحال، وتملك من الثروة والمال ما يكفيك لتكون أسعد الناس؟

٣ - أَمْ مَا لِجَنْبِكَ لاَ يُلاَئِمُ مَضْجَعاً ...إِلاَّ أَقَضَّ عليْكَ ذَاكَ المَضْجَعُ؟

تتابع "أميمة" أسئلتها المستغربة لزوجها قائلة: وما بال جنبك لا يجد الراحة في أي فراش تنام عليه؟ فكأنك لا تضطجع إلا على فراش خشن مليء بالحصى يؤلم جسدك.

لِسانًا عَرَبِيًّا

شرح مرثية أبي ذؤيب

لِسَانًا عَرَبِيًّا

٤ - فَأَجَبْتُهَا: أَنْ ما لِجِسْمِيَ أَنَّهُ ... أَوْدَى بَنِيَّ، مِنَ البِلادِ فَوَدَعوا

يجيب الشاعر امرأته "أميمة" التي سألته عن سر نحول جسمه وشحوبه، فيقول لها: إن ما ترينه في جسدي من ضعف وذبول ليس لمرض أو قلة مال، بل سببه الفاجعة التي ألمّت بي؛ لقد مات أبنائي وهلكوا، ورحلوا عن هذه البلاد وعن هذه الدنيا رحيلاً لا عودة بعده، فتركوا خلفهم أبًا حزينًا يذيبه الكمد.

لِسانًا عَرَبِيًّا

٥ - أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لاَ تُقْلِعُ

يقول الشاعر: لقد مات أبنائي وفارقوا الدنيا، ولم يخلّفوا لي وراءهم سوى ألمٍ خانق في صدري يصحو معي كلما استيقظت من نومي، ودموع غزيرة مستمرة لا تجف ولا تنقطع أبداً. وهو هنا يصف حالة الحزن المزمن التي ترافقه في ليله ونهاره، وتحرمه الراحة حتى وهو على فراشه.

٦ - سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

يتحسر الشاعر على أولاده قائلاً: لقد تعجلوا الرحيل وسبقوا آمالي العريضة التي كنت أرجوها لهم، وأسرعوا الخطى نحو قدرهم المحتوم، فاختطفتهم يد الموت واقتلعتهم من الحياة سريعاً. ثم يعزي نفسه بحتمية القدر قائلاً إن هذا هو حال الدنيا؛ فلكل إنسان ميتة مكتوبة ومصرع في مكان ما في الأرض لا بدَّ أن يلقاه يومًا ما.

لِسانًا عَرَبِيًّا

٧ - فَعَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ ... وَإِخَالُ أَنِّي لاَحِقٌ مُسْتَتْبَعُ

بعد أن مات أولادي وفارقتني بهجتي، مَضَتْ أيامي وتجرّعتُ غصص الحياة في عِيشةٍ مُرَّة كَلِيلَة مَلِينَة بِالتَّعَبِ وَالنَّصَبِ البَدَنِي وَالنَّفْسِي، وأنا الآن على يقين تامّ بأنني سألحق بهم سريعًا، وكأنَّ الموت يستتبع أثري لِيَطْوِيَ صَفْحَتِي كَمَا طَوَى صَفَحَاتِهِم.

واختيار كلمة "نَاصِب" يوضح بقوة كيف تحوّلت الدُّنيا في عين الأب المفجوع؛ فالحياة بغير أبنائه لم تعد مجرد أيام تمر، بل أصبحت عِبئاً ثقيلاً ومكابدة يومية. ولفظ "مُسْتَتْبَع" يعطي شعورًا بالاستسلام للقدر، فالشاعر لا يرى نفسه يعيش باختياره، بل يُساق إلى حتفه المحتوم.

لِسانًا عَرَبِيًّا

شرح مرثية أبي ذؤيب

لِسَانًا عَرَبِيًّا

٨ - وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمُ ... فَإِذَا المَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لاَ تُدْفَعُ

يقول الشاعر بنبرة يملأها الانكسار والأسى: لقد بذلتُ كل جهدي وطاقتي، وحاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أحمي أبنائي وأدفع عنهم خطر الموت والهلاك، ولكنني أدركتُ بيقينٍ مرير أن الموت إذا أقبل ليقبض الأرواح، فإنه لا يُقهر ولا يُرد، وتقف أمامه حيلة الإنسان وعاطفة الأبوة عاجزة تمامًا.

هذا البيت هو ذروة الاعتراف بالضعف الإنساني أمام القدر، وفيه يلخص أبو ذؤيب الهذلي عجز الأبوة وحرقتها؛ فالأب الذي يُفترض به أن يكون الحامي لأولاده، يقف مكتوف الأيدي أمام الموت.

٩ - وَإِذا المَنِيَّةُ أَنشَبَت أظفارَها ... أَلْفَيتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ

يصور الموت بوحش كاسر يغرز مخالبه في ضحيته، وحين تنزل المنية لا ينفع معها علاج ولا تميمة (خرزات أو رقى كانت تتخذ لدفع الشر في الجاهلية)، وحرمها الإسلام.

١٠ - فَالعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَا ... سُمِلَتْ بِشَوْكٍ، فَهِيَ عُورٌ تَدْمَعُ

يقول الشاعر: إن حال عينيَّ بعد موت أبنائي ورحيلهم قد تبدل تمامًا؛ فمن كثرة البكاء الشديد والأرق الطويل، أصبحتُ أشعر وكأن حَدَقات عينيَّ قد طعنت وفُقئت بأشواك حادة، فغدت عوراء فاقدة للنور، لا تكف عن سكب الدموع الغزيرة من شدة الألم وحرقة القلب.

لِسانًا عَرَبيًّا

١١- حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ ... بِصَفَا المُشَرِّقِ كُلَّ يَوْمٍ تُقْرَعُ

يقول الشاعر: لقد توالت عليّ الفواجع والمصائب حتى أصبحتُ في هذه الدنيا أشبه بحجرة "مروة" صلبة ملقاة على جبل مرتفع مواجه للشمس، تتلقى ضربات القارعِين وصدمات الحوادث كل يوم دون توقف. وهو هنا يمزج بين أمرين: يعبر عن قسوة وتلاحم المصائب التي تتوالى عليه، وفي ذات الوقت يشير إلى صلابته وتجلّده كالمروة التي لا تتفتت بسهولة رغم توالي الضربات عليها.

١٢ - لاَ بُدَّ مِنْ تَلَفٍ مُقِيمٍ فَانْتَظِرْ ... أَ بِأَرْضِ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى المَصْرَعُ

يصوغ الشاعر حقيقة كونية كبرى تعزّي كل مفجوع، فيقول: إن الموت والهلاك نهاية حتمية لازمة ومقيمة لكل كائن حي في هذه الدنيا، فلا مفر منه ولا مهرب، وعليك أن تنتظر هذا القدر وتترقبه؛ فالخلاف الوحيد المتبقي هو التفاصيل: هل ستموت في أرضك ووطنك وبين قومك وأهلك، أم سيكون مصرعك ونهايتك في أرض بعيدة وغريبة عنك؟

لِسانًا عَرَبيًّا

شرح مرثية أبي ذؤيب

لِسَانًا عَرَبِيًّا

١٣ - وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ البُكاءَ سَفاهَةَ ... وَلَسَوْفَ يُولَعُ بِالبُكاءِ مَنْ يُفْجَعُ

يقول الشاعر بنبرة تجمع بين الفلسفة العقلية والاعتراف بالضعف الإنساني: إنني في قرارة نفسي وأمام أحكام العقل والمنطق، أرى أن البكاء والنحيب على الموتى أمر غير مجدٍ، بل وقد يبدو سفهًا؛ لأنه لا يرد غائبًا ولا يغير قدرًا. ولكنني في الوقت ذاته أعلم يقينًا أن الإنسان إذا نزلت به فاجعة كبرى وهزّه الفقد الشديد، فإنه سيُبتلى بالبكاء رغماً عنه، وتغلبه دموعه فلا يملك لنفسه دفعًا.

١٤ - وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرَّةً ... يُبْكَى عَلَيْكَ مُقَنَّعًا لاَ تَسْمَعُ

يخاطب الشاعر نفسه (أو يخاطب الإنسان عمومًا) ليعلن النتيجة الحتمية الكبرى قائلاً: أيها الباكي الحزين، تيقّن تمامًا أنه سيمر عليك يومًا ما وقتٌ تتبدل فيه الأدوار؛ فبعد أن كنتَ أنتَ مَن تبكي وتندب أحبابك الراحلين، ستصبح أنتَ الجنازة المحمولة، وسيبكي الناس عليك وأنتَ مُدرجٌ في كفنك، مُغطى الوجه، مغيبًا عن الوعي لا تسمع صراخ الباكين ولا عويل النادبين.

لِسانًا عَرَبِيًّا

١٥ - وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

يقول الشاعر: رغم أن الحزن يقطع أحشائي من الداخل، إلا أنني أتعمد إظهار التماسك والصبر الشديد أمام أعدائي والشامتين بي؛ لكي أقطع عليهم متعة الفرح بمصيبتي، وأؤكد لهم بصلابتي أن حوادث هذا الزمان وفجائعه -مهما بلغت قسوتها- لن تستطيع كسري، أو إضعافي.
كشف البيت عن ملمح نفسي بليغ في شخصية الرجل العربي القديم؛ فالحزن ليس مجرد مشاعر خاصة، بل هو معركة كبرياء وعزة أمام القبائل الأخرى. الشاعر يفصل هنا بين بكائه الحقيقي في خلوته وبين المظهر المهيب الذي يجب أن يراه عليه الأعداء.

١٦ - وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

يضع الشاعر قانونًا نفسيًا خالدًا في تربية الذات، فيقول: إن النفس الإنسانية بطبيعتها أشبه بالطفل؛ إن طاوعتها وأطلقت لعها العنان امام الملذات والشهوات والتعلق بالدنيا، اتسعت رغباتها ولم تشبع أبداً، أما إن كنت حازمًا، وعودتها الرضا، وكبحت جماحها، فإنها سترضى بالقليل وتتحلى بالقناعة.

يُظهر هذا البيت التأثر الواضح بقيم الزهد وضبط النفس التي جاء بها الإسلام، وهو ما يفسر نضج الفكر الإنساني لديه كشاعر مخضرم.

لِسانًا عَرَبِيًّا